Mirrors of Otherness Biography in Taha Hussein's Book

(With Abo AlAlla' in his prison)

Dr. Ahmed Yassin Mousa Al-Aroud
PhD in Modern Literary Criticism
Associate Professor, Al-Balqa Applied University/ Jordan
Dr.ahmadyassin@bau.edu.jo

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v1i146.4115

Abstract:

Perhaps the relationship between Taha Hussein and Ma'ari attracted the attention and was paradoxical because this relationship came as a result of the hate from Taha Hussein to Al- Ma'arii that turned into an eternal love which made Taha Hussein produce books to expose this love between them. aha Hussein's writing on Al Ma'arri modern literary criticism constituted a major component in reading this poet, who was and still act as problematic in a stage of old Arabic literature so within this problem, this research came up with the idea of reading the book named ''with Abo Al Alla' in his prison ''. The critics read this book as a pure critical book without looking at the biography inside, which makes readers to present this side in the title '' Mirrors of Autobiographies in '' with Abo Al Alla'in his Prison ''. These mirrors were: the mirror of Diqas, the mirror of self, mirror of Bashar bin Burd, Al Mutanabi mirror, the mirror of the exalted text, the mirror of Al -Marri's text and all of these mirrors formed the biography of Al Marrii as founded by Taha Hussein and lived with Al Maarii in his prison where he recorded his observations through these mirrors.

Keywords: Al-Maari، Biography of otherness, Mirrors, Taha Hussein, prison.

مرايا السيرة الغيريّة في كتاب طه حسين
(مع أبي العلاء في سجنه)

الدكتور أحمد ياسين موسى العرود
دكتواره في النقد الأدبي الحديث
أستاذ مشارك جامعة البلقاء التطبيقيّة/ الأردن

(مُلَخَّصُ البَحث)

ربما تكون العلاقة بين طه حسين والمعري تثير الانتباه والمفارقة، إذ جاءت هذه العلاقة بينهما على أَثَر كره طه حسين أبا العلاء المعري، ثم تحوّلُ هذا الكرهُ إلى حبٍّ أبديٍّ أنتج كتباً ألفها طه حسين في سبيل الوفاء لهذا الحب بين الرجلين، حيث قرئت هذه الكتب في النقد العربي الحديث في إطار الاشكاليّة التي حملها المعري نفسه، ولهذا فقد شكّلت كتابات طه حسين عن المعري في النقد العربي الحديث محوراً رئيساً في قراءة هذا الشاعر الذي كان وما زال يمثل إشكاليّة في مرحلة من مراحل الأدب العربي القديم، وفي إطار هذه الاشكالية التي قدمها طه حسين، جاء هذا البحث بفكرة قراءة كتاب" مع أبي العلاء في سجنه" من خلال ما أسمته الدراسة "مرايا السيرة الغيريّة في كتاب طه حسين " مع أبي العلاء في سجنه" .إذ قرأ النقاد هذا الكتاب على أنّه كتاب نقديٌّ خالص ولم يُنظر إلى جانب السيرة فيه ،مما دفع الدراس الحالي إلى تقديم هذا الجانب تحت عنوان مرايا السير الذاتيّة في كتاب طه حسين " مع أبي العلاء في سجنه" وقد كانت هذه المرايا كما وجدتها الدراسة: مرآة ديجاس، ومرآة الذات، ومرآة بشار بن برد والمتنبي، ومرآة التخيّل ومرآة النّص العلائي، اذ شكّل مجموع هذه المرايا سيرة المعري كما وجدها طه حسين وعاشها مع المعري في سجنه اذ سجّل مشاهداته عبر هذه المرايا .

كلمات مفتاحيّة، سيرة غيريّة، سجن، طه حسين، مرايا، المعري.

مرايا السيرة الغيريّة في كتاب طه حسين
(مع أبي العلاء في سجنه)

"...وكانت نتيجة لزومي الشيخ آناء الليل وأطراف النّهار شهراً وبعض شهر هي هذه التي أريد أن أصورَها لك وأعرضها عليك"
"طه حسين" مع أبي العلاء في سجنه (حسين،٢٠١٢، ص٦٣)

"...إنَّ البحث عن الحقيقة التأريخية هو مطلب العلم، والبحث عن التعبير عن شخصيّة هو من باب أولى مطلب فنان، فهل يمكن أنْ نحقق المطلبين في وقت واحد"؟ (موروا، ١٩٩٩، ص٣٥)

المقدمة Introduction:

يقول إحسان عبّاس في حديثه عن السيرة وكتابتها قديماً وحديثاً وبداية حضورها في حياة الإنسان:"...ففي أحضان التاريخ نشأت السيرة وترعرعت ... على مرِّ العصور، فكانت تسجيلاً للأحداث والحروب المتّصلة بالملوك عند الصينيين والمصريين والآشوريين، وكانت تفسِّر بعض المبادئ السياسيّة عند فلوطارخس PLUTARCH في كتابه عن عظماء اليونان والرومان"(عبّاس،١٩٩٦، ص١١). وبهذا فإنّ السيرةَ تدخل كلَّ باب من أبواب الحضارة ومنه باب التاريخ الذي تتكئ عليه كثيراً وتلتزمه في تأطير حياة شخصيّاتها وتحليل ما يتعلّق بهذه الشخصيّات من حوادثَ ومبادئَ وارتداداتٍ تتعلق في السياق الذي ظهرت فيه الشَّخصياتُ موضوعُ الكتابة. وعندما نذهبُ إلى طه حسين لنرى علاقته بالسيرة في إطار المفهومات المتعارف عليها ومساحة ما يمكن أنْ تشغله السيرة في الكتابة الابداعيّة؛ نجده قد وظّف معرفته العميقة بالتاريخ ووقف عند شخصّياته التي كتبها – ومنهم المعري– وقوفَ كاتبِ السيرةِ الذي يعيش في أحضان هذا التاريخ مفسّراً المبادئ والأحداث كما يرى فلوطارخس كما مر سابقاً.

إنَّ علاقةَ طه حسين مع كتابة السيرة الفنيّة بنوعيها الذاتيّة والغيرية علاقةٌ وطيدةٌ ومميزةٌ، فقد كتبَ سيرته الذاتيّة في كتاب " الأيام" الذي جاء في ثلاثة أجزاء(حسين، ١٩٢٩)، وكتب سيرةً غيريّة في كتابه" أديب"(حسين، ٢٠١٢) الصادر ١٩٣٥، ولعل جماليّة الأسلوب الذي يمتلكه طه حسين ،فضلا عن المنهج التاريخي الذي خبر به أبعاد الكتابة التاريخية؛ هما اللذان منحا طه حسين أسلوبه الماتع في تقديم الشخصيّة التي يكتب عنها، سواءٌ كتب عن نفسهِ أم عن غيرِه ،وقد انعكس هذا في كتابات طه حسين النقديّة أيضاً، مما جعل بعض مؤلفاتِه التي حُسبت على النقد عند الكثيرين أنْ يتوافر فيها البعد السيري أكثر من النقدي؛ وأخصُّ بالذكر هنا ما كتبه عن أبي العلاء المعري ولا سيما كتابه " مع أبي العلاء في سجنه" فقراءة هذ الكتاب تضعنا أمامَ أركانِ السيرة الغيريّة وقصديّتها المتمثّلة في عرض مظاهر حياة الانسان المكتوب عنه في أبعادها الزمانية والمكانيّة والفكريّة، وهذا ما نجده عند طه حسين في كتابه هذا، اذ قدَّم لنا شخصيّةَ المعري عبر ما اسمته الدراسة " مرايا السيرة" وقد غلبَ في هذا الكتابِ أسلوبُ طه حسين السيري والمقصود في كتابة سيرة المعري كما سيتضح في الدراسة من جانب ،واعتراف طه حسن في هذا من جانب آخر، فهل كان كتابُ "مع أبي العلاء في سجنه" كتابَ سيرةٍ غيريّة يضاف إلى كتب السيرة التي كتبها طه حسين؟

كتابُ "مع أبي العلاء المعري في سجنه" جدليّة السيرة والنقد الأدبي:

جاء كتابُ طه حسين" مع أبي العلاء في سجنة "عقبَ كتابه الأوّل " تجديد ذكرى أبي العلاء " الذي كتبه عن طه حسين وحصل فيه على إجازة الدكتوراه من الجامعة المصريّة. ففي هذا الكتاب درس طه حسين حياة المعري في أبعادها كافّة موظّفاً في ذلك المنهج التأريخي، أو الحتميّة التأريخيّة، وقد وصف الكتابَ – تجديد ذكرى أبي العلاء– بقوله:

" ليس الغرض في هذا الكتاب أنْ نصف حياة أبي العلاء وحده، وإنّما نريد أن ندرس حياة النّفس الاسلاميّة في عصره، فلم يكن لحكيم المعرة أنْ ينفرد بإظهار آثاره الماديّة أو المعنويّة. وإنّما الرّجل وما له من آثار وأطوار نتيجة لازمة، وثمرة ناضجة لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه وتصوير نفسه، من غير أنْ يكون له عليها سيطرةٌ أو سلطان"(حسين،٢٠١٢، ص١٧)

وبعد هذا لم يتبق لدى طه حسين ما يقوله عن المعري وتقييم شعره ونثره، اذ قال ما أراده في هذا الكتاب ، ولكن بقي لدى طه حسين أنْ يكتب في سيرة المعري وشرحِ بعضٍ من شعره ونثره كمرايا تنعكس فيها حياة المعري النفسيّة كما يقدمها طه حسين، وفي هذا يقول طه حسين في حديثه عن كتاب "مع أبي العلاء في سجنه" موضوع بحثنا موجهاً كلامه إلى المتلقي مثبتاً ترجمته حياة المعري وسيرته ليس غير–إذ لم يكن قصدُ الحديث عند طه حسين عن المعري بحثاً علمياً ولا نقداً أدبياً – ولكن كان حديثَ صديقٍ عن صديقه، ولا يكون ذلك إلا في "السيرة الغيريّة" التي تقدم ما يعرفه الكاتب عمن كتب في أدق تفاصيل حياته، وهذا ما حاوله طه حسين، اذ يصرّح بذلك، فيقول:

"... فإنّي لا أقدم إليك كتاباً في البحث العلمي عن أبي العلاء، ولا في النقد الأدبي لأبي العلاء، ولعلي قدمت إليك من ذلك ما فيه مقنعٌ؛ وإنما أتحدث إليك عن صديق لا يُرجى نفعُه ولا يتقى شره؛ " (حسين، ٢٠١٢، ص٢٢).

في الاتكاء على ما يقوله طه حسين، ويصرّح به من قصديَّة هذا الكتاب وتأليفه؛ وهي الحديث عن حياة المعري من خلال الحبَّ المبرّأ الذي لا يصدر عن الرّغب أو الرّهب أو الطّمع والاشفاق، فإنّه لا مندوحة أمامَ المصنِّف لهذا الكتاب إلا أنْ ينحاز إلى تصنيف السيرة الغيريّة التي تجسدّت إلى جانب الاعتراف من المؤلِّف وقصديّته في تأليف الكتاب الذي يقدّم حياة المعري من خلال مرايا سيرية وجدت الدراسةُ أنَّ طه حسين قد وظّفها في كتابة حياةِ وسيرةِ المعري أو كتابةِ جزءٍ منها. ولعل هذا البعد السيري جعل العقاد في تقييمه هذا الكتاب يقول: "وقد أحسن الدكتور القصد، وأحسن التعريف. فكتابه حديثُ المرء عمن يحب لمن يحب. واراه مذكّري أحاديث الآباء عن أبنائهم الأعزاء: ". (العقاد، ١٩٣٩، عدد، ٣٣٥).

ما بين المعري وطه حسين:

ربما تكون العلاقة بين طه حسين والمعري كما يقدمها طه حسين من بدايتها تثير الانتباه والمفارقة، إذ جاءت هذه العلاقة بينهما على أَثَر كره طه حسين أبا العلاء المعري، ثم تحوّلُ هذا الكرهُ إلى حبٍّ أبديٍّ أنتج كتباً ألفها طه حسين في سبيل الوفاء لهذا الحب بين الرجلين، ولعل سببَ كره طه حسين المعري كان أيضاً غريباً، اذ لم يتعلق هذا الكره في شخص المعري أو فكره، بل بسبب المنهج الذي كان يُقدَّمُ به أبو العلاء المعري للناس .وما حبَّبه إلى طه حسين هو المنهج الجديد الذي يمنح الباحثَ الحديثَ عن الشخصيّة بكل حريّةٍ وانفتاح على عالمها الفكري وفي هذا يقول طه حسين:

"كرّه المنهجُ القديمُ إليَّ أبا العلاء وأزال المنهج الجديدُ من نفسي هذ الكره "(حسين، ٢٠١٢، ص١٣)، وبسبب زوال ذلك الكره فقد كان أبو العلاء اختيارًا لطه حسين في رسالته التي قدمها إلى الجامعة المصريّة في عام ١٩١٤ (حسين، ٢٠١٢، ص١٣)، بعد أنْ فاضل بينه وبين مجموعة من الموضوعات التي كانت تراود طه حسين من أجل دراستها كموضوعٍ لبرنامجه في الدكتوراه (حسين، ٢٠١٢، ص ١٣-١٤)، يقول:

"...ثم عرض إليَّ أنْ أدرسَ حياة أبي العلاء ذلك الذي أبغضته ونفرت منه، ولست أدري لِمَ حُبب إليَّ البحثُ عن هذا الرجل؟ ولِمَ كلفت به هذا الكلف؟ ومع أنَّ كتبَه قد ضاع أكثرُها، فقد خيّل إليَّ أنّي أستطيع أنْ أجدَ فيما بقي منها ما يشفي الغليل "(حسين، ٢٠١٢، ص١٣).

ويذهب طه حسين بعد ذلك لتبرير تعلّقه بالمعري، يقول:

"...وقد سمعت النّاس يتحدّثون عن اللزوميّات فلا يتفقون فيها على رأي. وسمعتهم يصفون أبا العلاء بالإسلام مرّة وبالكفر مرّة، ورأيتُ الفرنج قد عنوا بالرجل عناية تامّة. فترجموا لزوميّاته شعراً إلى الألمانيّة، وترجموا رسالة الغفران وغيرها من رسائله إلى الانجليزيّة، وتخيّروا من اللزوميّات والرسائل مختاراتٍ نقلوها إلى الفرنسيّة، وأكثروا من القول في فلسفته ونبوغه "(حسين، ٢٠١٢، ص١٣)

ولعل اعترافاً مباشراً من طه حسين يبيّن سبب تعلّقه بالمعري، وهذا السبب لم يكن بسبب فكر المعري وما كتبه من كتب أو ما كان حوله من اختلاف فقط، بل هو سبب ماديٌّ لما بين الرجلين من اشتراك في آفة العمى -كما يسميها طه حسين- التي عاشها الاثنان ومدى التقارب الكبير بسبب اصابتهما في هذه الآفة، وكذلك العمر الذي حصلت فيه، حيث كانا في سن الرابعة من عمريهما، يقول:

" ورأيت بيني وبين الرّجل تشابهاً في هذه الآفة المحتومة. لحقت بكلينا في أوّل صباه، فأثّرت في حياته أثراً غير قليل"(حسين،٢٠١٢، ص١٣)

وبهذه الأسباب لم يحظ كاتبٌ بما حظي به أبو العلاء المعري عند طه حسين، وقد كانت مظاهر هذه الحظوة تتجلى في عدد الكتب والمقالات التي أفردها طه حسين في تقديمه هذه الشخصيّة التي شغلت النقاد قديماً وحديثاً، وهذه الكتب هي: "تجديد ذكرى أبي العلاء المعري" و"مع أبي العلاء في سجنه" و" صوت أبي العلاء ". (حسين، د.ت) " وكتاب "شرح لزوم ما لا يلزم " الذي ألّفه بالاشتراك مع الأستاذ ابراهيم الأبياري وصدر جزؤه الأول في مجموعة " ذخائر العرب "الرّقم ١٣، سنة ١٩٥٥ (حسين،١٩٥٩)، ويضاف إلي هذه الكتب مجموعةٌ من المقالات التي كتبها طه حسين في مناسبات تخص المعري وهذه المقالات هي: "تعريف القدماء بأبي العلاء المعري"(حسين، ١٩٨٠)، و"الفصول والغايات "(حسين، ١٩٨٠)، و"شرح لزوم ما لا يلزم "(حسين،١٩٨٠) تعريف القدماء بأبي العلاء من جديد"(حسين، ١٩٨٠).

وعلى الرغم مما كتبه طه حسين عن المعري، وتحمّسه له، وتوجيهه القارئ نحو محبة المعري والاقتناع بما له من آراء؛ حيث يبررها طه حسين من خلال جعل المعري ثمرة فكريّة من ثمار العصر الذي ظهر فيه، وأنَّ المعري يمثل نموذجَ المعرفة في تلك المدة فإنَّه يرى أنَّ ذلك لم يوفِ المعري حقّة؛ حيث المعري له على طه حسين حقوقٌ كثير لم يستطع أنْ يوفيها ،إذ يقول في هذا:

" وقد كتبت عن أبي العلاء ما إذنَ الله لي أنْ أكتبَ، وأظنُّ أنِّي قد عرّفته إلى هذا الجيل الحديث. ولكنّي لم أودِّ إليه من ذلك إلاّ بعضَ حقّه، وما زالت له عليّ حقوقٌ كثيرة أرجو أن يُعينني الله على تأدية بعضها، وأن أُعرّفه إلى عامّتهم بالترجمة الصحيحة عنه والتفسير الدقيق لشعره ... "(حسين،د.ت،ص٨-٩)

ومما لا شكّ فيه أنَّ تعلّق طه حسين بالمعرى دلائله كثيرة، نجدها في أيِّ مشهد من مشاهد حياة طه حسين، فقد زار طه حسين قبر المعري في ألفيته الأولى ،وقد أجاب على سؤالٍ وجهته إليه إحدى الصّحف وقد نشر في أرشيف "بوابة الأهرام" وكان السؤال يقول: ماذا شعرت عندما وقفت على قبر المعري؟ فيجيب طه حسين:

"وجدتُ الشعور الذي يُطلق العاطفة، ويقيد اللسان، ويصرفه عن كل شيء، ويصرفه عن كل إنسان، إلا عن أبى العلاء، فلم أفكر إلا فيه، ولم أتحدث إلا إليه، حتى كان الامتزاجُ بيننا قوياً، حتى كدت أنْ أنسى نفسي، ما أكثر الأدباء العرب الذين يستحقون التقدير، لكني لا أعرف لأبى العلاء في الأدب العربي ثانياً. (https://gate.ahram.org.eg/News/3589983.aspx)"

وليس أكثُر دلالةً على تعلّق طه حسين بالمعري، وتأثره فيه من ذكره أبا العلاء المعري عندما كتب سيرته الذاتيّة " الأيام"؛ فكان يمزج بين ما لأبي العلاء من مظاهر حياة وما له

يقول: يقول: "ولم يذكر الفتى كم مرة قرأَ شعر أبي العلاء، ونشره مع صديقه ذاك، ولكنه عرف أنه قرأه مراتٍ كثيرة، وتأثر به أعمقَ الأثر، وآمن به أشدَّ الإيمان، واستيقن أنَّ حياة أبي العلاء هي الحياةُ التي يجب عليه أنْ يحياها ما استطاع إليها سبيلا ".(حسين، ١٩٩٢،٢٦-٢٧)

لقد مزج طه حسين حياته الأولى وطفولته وشبابه وشيخوخته بما كان يقرأه عن المعري مما دفعه إلى الأخذ على عاتقه أنْ يعيشَ ما عاش المعري، وذلك بما يستطيعه كما ذكر فيما سبق، وقد أستطاع الكثير فقد حصَّل الشهرة، وأسلوب التفكير المبني على العقل، وطرح اشكاليّة الانسان العربي سواء من جانب الايمان أو من جانب العلم والمنهج العلمي، وحمل راية التجديد والحداثة الفكرية وهذا ما كان عليه المعري. وفي هذا التعلّق والاندماج بين الشخصيّتين تقول زوجه "سوزان"الفرنسيّة:((https://www.elfagr.org/2883698 "... بهذا. إنَّ طه حسين كان أبا علاءٍ آخر، إنسانان غارقان في الليل نفسه. إنسانان يرفضان قدراً ظالما. إنسانان يملكان رضوخاً خارقا، وموهبة في التعبير استثنائية. وكبرياء شامخة، وجرأة فكر. كلاهما يعرفان نفسيهما ويريدان أنْ يكونا حُرَّين. وكلاهما كانا يُحاكم العالم، دون أي وهم."(بريسو،١٩٧٩، ص٢٣٩).

وليس هذا فقط، فقد الزم نفسه ما فعله أبو العلاء من تحريم بعض الأكل لما يسبب له ذلك من حرج كحادثة أكلِ أبي العلاء الدبس:"(حسين، ١٩٩٢،ص٢٧) فطه حسين يمزج حياته مع المعري بحادثة مشابهة وذلك عندما وضع كلتا يديه في الطعام فأخذَ اخوته في الضحك ، وأمه في البكاء ، وأبوه يرشده ألاَّ يفعل ذلك (حسين، ١٩٩٢،ص٢٦-٢٧) أما بالنسبة له فقد اقتفى أبا العلاء المعري في تحريم ذلك على نفسه طول حياته يقول:" فهمَ صاحبنا هذه الأطوار من حياة أبي العلاء المعري حقَّ الفهم لأنه رأى نفسه فيها" (حسين، ١٩٩٢، ص٢٨). وفي مكان آخر من " الأيام" يعود أبو العلاء إلى الفتي ليلقى في نفسه كره الحياة وقسوتها، ولكن في هذه المرة يأتي صوتُ الحياة في فرنسا ليدحض عن الفتى الكره والتشاؤم يقول:

"يرحم الله أبا العلاء فقد ملأ نفس الفتى ضيقاً بالحياة وبغضاً لها ...وإذا هذا الصوت يذود عن نفس الفتى ،كلَّ ما ألقى فيها أبو العلاء من ظلمة التشاؤم واليأس والقنوط، ... وإذا المدينةُ تصبح كلُّها إشراقاً، سمع الفتى ذلك الصوت الذي يقرأ عليه شيئاً من شعر راسين ذات يومٍ، فأحس كأنه خلق خلقاً جديداً"(حسين، ١٩٩٢،ص٤١٤) .وهنا خالف المعري في زهده المطلق، وسجنه النفس الذي وصل حدَ التشاؤم والتطيُّر، وكان طه حسين في تعلقه المعري يأخذ في قول المعري:" أنسيُّ الولادة وحشيّ الغريزة" ،يقول :واستأنف الفتى حياة

جديدة، بأوسع معاني هذه الكلمة وأعمقها! كان يرى نفسه في كلمة أبي العلاء حين قال: أنسيُّ الولادة وحشيّ الغريزة) حسين، ١٩٩٢، ص٤٥١)

وبسبب هذا التعلّق وهذا الحب فقد كان طه حسين يبرّر للمعري ما لا يبرره للآخرين- فاسمع إليه ماذا يقول في شرحه بيت المعري:

"لا تَظْلِمُوا المَوْتَى وإنْ طَالَ المَدَى إنَّي أَخَافُ عَليكُمُو أَن تَلْتَقُوا.

... والغريب أني قد وَعَيْتُ هذا البيت وفقهْتُه كما ترى، وتأثَّرْتُ به أشدَّ التأثر، وقبِلْتُ وعْظ أبي العلاء بالقياس إلى أبي العلاء نفسه؛ ولكني لَمْ أَقْبَلْهُ، وما أرى أني سَأَقْبَلُه، بالقياس إلى غيره من الشعراء والكتَّاب "(حسين، ٢٠١٢، ص٢٠-٢١). وبسبب هذا الاعتراف والتجلّي في سلوك طه حسين لصفات المعري جعل كلَّ مجايليه يلتفتون إلى هذه العلاقة ومنهم الكاتبة المشهورة في تلك الفترة مي زيادة حيث بعثت له رسالةً خاطبته بها بأبي العلاء المعري وكان سبب كتابة الرسالة عودة بعثة الجامعة لأبي العلاء بعد فصله منها((https://alantologia.com/blogs/blog/1967/

لعل ما قدمته الدراسة من شواهد في متانة وخصوصيّة العلاقة بين طه حسين والمعري هو غيض من فيض مما نجده مبثوثاً في ثنايا ما كتبه طه حسين عن المعري. ولا سيما كتابه موضوع الدراسة "مع أبي العلاء في سجنه"، الذي جاء ثمرة من ثمرات هذه العلاقة التي جعلت طه حسين يكتب سيرة المعري عبر مرايا وظفها طه حسين في إبداع هذه السيرة العميقة.

مرآة العنوان:

لقد شغلت ثيمة العنوان في النقد الأدبي الحديث حيزاً كبيراً، إذا رأى فيه النقاد عتبة مهمة في الدخول إلى عالم النّص (رحيم،٢٠١٠، ص٤٠). وعندما يكون العنوان هو بوابة الدخول إلى المتن وما يأتي تحته هو متعلق في دلالته؛ فإنَّ مرآة العنوان في كتاب طه حسين (مع أبي العلاء في سجنه) تضعنا أمام سؤال يقول: ما تصنيف هذا الكتاب هل هو كتابُ نقدٍ أدبي أم كتابُ سيرة غيريّة يكتبها طه حسين للمعري؟ (انظر ما سبق من الدراسة). وهذا سؤال مشروع ينمو في ذهن قارئ الكتاب، بل ويتلبّسه من بدء الكتاب حتى منتهاه، وسبب ذلك أنَّ مرآة العنوان وما تحتها من متنٍ يخاتلا القارئ في اللحظة التي يبدأ فيها القارئ دخول عُباب الكتاب، فطه حسين في كتابه هذا يعيش هذه المخاتلة والتجريب في كتابة السيرة التي تتبنى الأسلوب غير المباشر في اختيار عنوان السيرة، فها هو يختار هذا العنوان الذي في ظاهره ربما يوحي بدراسة نقديّة نفاها طه حسين نفسه كما بينت الدراسة، ويوحي في باطنه البلاغي والدلالي إلى أنَّ الكاتب قد عايش المكتوب عنه (المعري) لحظة بلحظة، وساعة بساعة ويوماً بيوم، وشهراً بشهر، وسنةً بسنة، ولعل هذا يُستشفّ من الوقوف

مع دلالة العبارة التي اختارها طه حسين للتعبير عن هذه المعايشة واختيارها عنواناً للكتاب " مع أبي العلاء في سجنه" فالاسم " مع" يعني ما يعني من معني معجمي ودلالي ففي المعنى المعجمي تفيد المصاحبة والاشتراك بين شيئين، وهذان الشيئان هنا هما المعري وطه حسين، والمعنى الدلالي الذي لا يبعد كثراً عن المعنى المعجمي هو أنَّ طه حسين قد عايش المعري فيما هو فيه من حياة ولا سيما العمى الذي هو "سجن المعري" وسجن طه حسين، وقد دخله طه حسين في جانبية "المادي " العمى الحقيقي، والمجازي وهو الذي يشعر به طه حسين بما شعر به المعري، ومن هنا فإن مرآة العنوان تعبّر تعبيراً قوياً عن علاقة الكاتب (طه حسين) بالمكتوب عنه (المعري).

لقد أدخل طه حسين العنوان كنافذة سيريّة نتطلّع من خلالها معه حياة المعري حيث يسبرها طه حسين بعمق الرائي البصير في حياة شخصيّته التي يكتب عنها، ولعل هذا سيتجسّد في تحليل شخصيّة المعري من خلال المرايا الأخرى التي ستعرضها الدراسة، وبهذا البعد السيري من خلال مرآة العنوان يتأكّد للقارئ كم كان طه حسين يقصد كتابة سيرة المعري، وليس نقده وقراءة نصّه عبر التقييم الفني والتحليل الأدبي لهذه الشخصيّة. ولهذا فقد شكّلت مرآة العنوان كما يتضح أولى حلقات السيرة الغيريّة للمعري في هذا الكتاب.

(مرآة ديجاس Mirror Degas) إدغار ديغا (Edgar Degas)

جاءت الصورة النفسيّة والفكريّة للفيلسوف الفرنسي ديجاس والتي قدمها بول فاليري Paul Valérie في كتابه عن ديجاس (https://www.independentarabia.com) "رقص وفن " Danse et art نموذجاً يمثل حياة المعري من وجهة نظر طه حسين مما دفعه إلى تضمين مقدمة هذا الكتاب" رقص وفن" والتي كتبها الفرنسي فاليري لتكون مرآةً ليوقِفَ طه حسين أمامها المعري ويراه من خلالها، حيث التوافق بين حياة المعري الفكريّة والنفسيّة وبين ديجاس كما يرى طه حسين، وتصبحُ حياة ديجاس هادياً لطه حسين نحو الحديث عن جانب من جوانب حياة المعري ،ولا سيما البعد النفسي والفكري: يقول:

" كان ديجاس يرفض السهولة كما كان يرفض كلَّ ما لم يكن يقصر عليه تفكيره، لم يكن يتمنّى إلا انْ يرضى عن نفسه أي أنْ يرضي أصعبَ القضاة وأصلبَهم وأبعدهم عن التحيّز. لم يحتقر أحداً قطُّ، كما احتقر الشهرة والمنافع والثروة وهذا المجد الذي يستطيعُ الكاتبُ أنْ يسبغه على الفنان في سخاءٍ وخفّة. وكان يسخرُ في عنفٍ من هؤلاء الذين يحكّمون في فنِّهم الرأي العام أو السلطان المقرر، أو المنافع التجاريّة كما أن المؤمن لا يحفل إلا بحكم ربّه الذي لا يمكن الاستخفاء منه والاحتيال عليه بالتلفيق، أو المفاجأة، أو التّصنّع أو أي مظهرٍ مهما يكن، كذلك أقام ثابتاً مستقرّاً لا يخضع الا للفكرة المطلقة التي

كوُّنها لنفسه في فنِّه. لم يكن يريد شيئاً إلا ما كان يجدُ أصعب المشقة وأثقل الجهد في استخلاصه من نفسه "(حسين، ٢٠١٢، ص٩-١٠).

وتسيطر مرآة ديجاس التي قدمها بول فاليري على ترجمة طه حسين حياة المعري ويتلبّسها طه حسين حتى يتوّهم القارئ في لحظة القراءة أنَّ طه حسين هو المتكلّم وليس فاليري، فيستعمل طه حسين مرآة ديجاس وهي على لسان فاليري وكأنّها على لسان طه حسين نفسه يتحدث عن المعري، يقول:

"ولعلي أعود إلى هذا كلِّه...على أني لا أدري ما عسى أن أقول بعد حين فقد يمكن أنْ أستطرد من حديث ديجاس إلى حديث الرّقص وإلى حديث الرسم فلست أرى أنْ أترجم له على النّحو المألوف، ولستُ حسن الرأي في التراجم، وهذا لا يدلُّ إلا على أنّي لم أخلق لها، فليست حياة رجلٍ آخرَ الأمرِ إلاَّ مصادفاتٍ يتّبع بعضها بعضاً، وإلاَّ أجوبةً دقيقةً أو غير دقيقةٍ لهذه الأحداث أو تلك"(حسين، ٢٠١٢، ص١٠).

ويتبنّى طه حسين مرآة ديجاس التي يصنعها فاليري في إشارته إلى ما يمتعه من حياة المعري، حيث هو ذاته ما يمتع فاليري من حياة ديجاس وهو عمق الشخصيّة والبعد النفسي أكثر من مظاهر ولادته أو حبه وشقائه، فيورد على لسان فاليري واصفاً حياة المعري:

"على أنَّ ما يُعنيني من حياة رجل من النّاس شيءٌ آخر غير هذه الاعراض التي تطرأ له. وليس ينَفعني مولده ولا حبّه ولا شقاؤه، ولا كلُّ هذه الاشياء التي يمكن أنْ تلاحظ في حياة النّاس، لأني أجدُ في هذا كلِّه أيسرَ الوضوح النافع الذي تستبين به قيمته الصّحيحة، والذي يميّزه تمييزاً عميقاً من النّاس جميعاً ومني. " (حسين،٢٠١٢، ص١٠)

بعد هذا يأتي صوت طه حسين معترفاً صُراحاً بتبني مرآة ديجاس وأبعادها الرؤيوية ليضع أمامها شخصيّة المعري التي يحبها طه حسين في عمقها الفكري والنفسي والمادي، يقول:

" على نحو من هذا القول كنت أريد أنْ أبدأ هذا الحديث الذي أستأنفه عن لزوميّات أبي العلاء المعري .... وكانت معانٍ تشبه هذه المعاني تضطرب في نفسي، وتلِّح في أنْ تجري على لساني، وأنْ يثبتها قلم صاحبي في الصّحف ... "(حسين،٢٠١٢، ص١٠-١١)

إنَّ طه حسين في أسلوبه الماتع في حديثه عن المعري -والذي كان يسجّل فيه حياة المعري ويترجم لها عبر أسلوب سيريّ وظّف فيه ما يمكن أنْ ينطوي تحت مصطلح التجريب(Experimentation) من حيث استخدام التقانات السرديّة(Narrative Technologies) وهي هنا تقنة المرآةMirror Technology – كما ترى الدراسة – إذ يسجّل لنا سيرة المعري ليس من خلال التتبع الزمني لحياة المعري، بل من خلال التحليل والاستنتاج والتمرئي في مرايا الآخرين الذين يرى طه حسين أنَّ حياتَهم تتقاطع مع حياة

المعري في جوانبها الفكريّة والرؤيوية ،ولعل هذا التجريب في كتابة سيرة المعري لم يكن غريباً على طه حسين صاحب "الأيام"، حيث طه حسين خرج في كتابة سيرة المعري في هذا الكتاب عن المألوف في كتابة السيرة الغيريّة وجعل السيرة عملاً فنيّاً ابداعيّاً يوازي كتابة العمل الروائي في أعلى قممه؛ ولعل هذا يذكرنا بمقارنة بين نوعين من السير عند أندريه موروا، (André Maurois) في كتابه" فن التراجم والسير الذاتيّة" L'art des traductions et des biographies، إذ يقول:"

"لكننا يمكن أنْ نعجب بإخلاص شديد بنمط من التراجم، أنْ نقرَّ مع ذلك بوجود نمطٍ آخر، ولنقرأ صفحة من ترجمة فيكتوريّة، ولنقرأ في أعقابها صفحة من كتابات ستراشي John Strashi، وسوف ترون – على الفور– أنّكم أمام نوعين من الكتب شديدةِ الاختلاف ؛فكتاب لترفيليان Terfilian أو لوكهارت Lockhart صنع بطريقة محكمة يصلح معها – قبل كلِّ شيء – أن يكون "وثيقة "، وكتاب لستراشي هو قبل كل شيء " إنتاج فني" وستراشي–في نفس الوقت دون شك– هو مؤرخ دقيق ،لكنّه عرف كيف يدخل مادته في "شكل رائع" وهذا الشكل يُعدُّ بالنسبة له الأساس الجوهري" (موروا، ١٩٩٩، ص٢٠).

إنَّ هذا القول ينطبق تماماً على ما نعيشه مع طه حسين في كتابته سيرة المعري في كتابه " مع أبي العلاء في سجنه"، ونحن نعرف أنَّ طه حسين هو مؤرّخٌ للأدب، ولكنّه هنا خرج من التأريخ إلى الإنتاج الفني المتمثّل في كتابه هذا ؛ليصبح الانتاج "سيره غيريّة" لا تُبنى على الزمن وتتبعه التراتبي ،بل على توظيف الأسلوب الفني في إنتاج النّص، ومن هنا تأتي عبقريّة طه حسين ، في توظيف المرايا ومنها مرآة ديجاس التي قدمها فاليري، فإن طه حسين يتابع كتابة حياة المعري وسيرته عبر ما قاله فاليري في ديجاس، يقول:

"... ولكن أعجب للمصادفات، وأعجب لقول فاليري نفسه أنَّ حياة رجلٍ من الناسِ ليست إلا سلسلةً من المصادفاتِ، وأعجبُ من قول أبي العلاء نفسه في أول اللزوميات أنَّه قال ما قال، بقضاء لا يشعر كيف هو. فلم أكد أسمع بول فاليري حتى رأيت خواطري مصوَّرة ومعانيّ ممثلة ". (حسين، ٢٠١٢، ص١١).

ما سبق من قول لفاليري ضمنّه طه حسين في أول كتابه ليكون حديثاً عن شخصيّة المعري، التي تتوافق من وجهة نظر طه حسين وشخصية ديجاس، حيث تؤكّد تمرئي طه حسين في مرآة ديجاس التي صنعها فاليري ليجدَ فهيا شخصيّة المعري، الذي كما يقول طه حسين: "قال ما فيها قبل ألف عام " وأعجب من قول أبي العلاء نفسه في أول اللزوميات إنه قال ما قال، بقضاء لا يشعر كيف هو " وهنا تتوافق أقوال فاليري عن ديجاس ليتبنّاها طه حسين في حديثه عن المعري" فلم يكدْ يسمع بول فاليري حتى رأى خواطره مصوَّرة ومعانيه ممثلة.

لقد لفت هذا التوظيف لحياة ديجاس – التي كتبها فاليري، والنظر من خلالها للمعري – عباس محمود العقاد، حيث علّق على ذلك مخالفاً طه حسين في مقالة له نشرها في مجلّة الرسالة بعنوان " مع أبي العلاء في سجنه"، إذ يقول:

"أفصحيحٌ أنَّ المعري وديجاس شبيهان في خليقة واحدة لأنهما على نفسيهما صارمان؟ إنَّ الفرق بين تعذيب وتعذيب ليبلغ أحياناً من السعة أبعد مما بين النعيم والعذاب، هكذا كان الفرق بين صرامة المعري وصرامة ديجاس". (العقاد، ١٩٣٩، ص١١)

إنَّ تعليق العقاد على ربط طه حسين بين مرآة ديجاس والمعري بأنهما متشابهان بالصرامة هذا صحيح، ولكنه في الوقت نفسه اختلاف في مظاهر الصرامة، فالمعري يمثل قلق الناسك في سبيل الاحجام، وديجاس قلق الفنان في سبيل الخلق، والمعري يمثل تعذيب الجواد في سبيل الكف عن الوثوب، وديجاس يمثل تعذيب الجواد بالسوط من أجل أن يسبق...وهكذا، ولعل هذه المفارقة التي تمثّل وجهة نظر العقاد، لا تنفي ما تذهب إليه الدراسة من توظيف مرآة ديجاس في حياة المعري عند طه حسين بغض النّظر عن توافقهما أو عدم ذلك التوافق، بل تؤكد فكرة التوظيف والتمرئي في كتاب "مع أبي العلاء في سجنة.

فيما سبق يتبيّن كيف جاءت مرآة ديجاس في كتاب " مع أبي العلاء في سجنه" تؤكّد أنَّ هذا الكتاب يصنّف في باب السيرة الغيريّة التي وظّفت تجريب الفن وابداعاته عند طه حسين في كتابة السيرة، ولعل ما يقوله أحدُ الدراسين في هذا يؤكّد هذا التوظيف عند طه حسين، يقول:

"يجدر التنبه إلى أنَّ طه حسين يتحدث عن كتاب فاليري (ديغا) في معرض حديث مسهب عن أبي العلاء المعري خالطاً بين "لزوميات" هذا الأخير وذلك الكتاب الفرنسي الطليعي."((https://www.independentarabia.com

إنّ هذا الرأي يأتي في إطار الحديث عن توظيف طه حسين مرآة ديجاس وانعكاسها في حياة المعري ولزوميّاته. ويأتي أيضاً في إطار كتابة سيرة المعري التي بنيت على فن السيرة التي توظّف أدوات الابداع الفني وخلق صورة المكتوب عنه ضمن ما أسماه أندريه موروا " إنتاج فنّي" كما أسلفت الدراسة. وإشارةً من طه حسين في توظيفه مرآة ديجاس التي صنعها فاليري يقول فيها:

"هنالك لم أرَ بداً من أنْ أترجم هذه الصفحة من صفحات بول فاليري ومن أنْ استعيرها بدءاً لهذا الحديث. والغريب الذي لم أكُن أتوقعه ولا أفترضه أن كثيراً من صفحات هذا المصور الفرنسي الذي كنت أسمع اسمه وأجهل من أمره كل شيء، تشبه ما أَلِفت وأحببت من صفات أبي العلاء. فشدة الرجل على نفسه إلى أقصى غايات الشدة، وشك الرجل في مقدرته إلى أبعد آماد الشك، وزهد الرجل في الشهرة وبعد الصيت، وفي الثراء وسعة ذات

اليد، وارتياب الرجل بأحكام الناس في أمور الفن، وانصرافه عن الحمد الكاذب والثناء الرخيص، وتأجيله لذة الظفر بالفوز وخلقه المصاعب لنفسه وبغضه للطرق القصار والأبواب الواسعة، وإثاره الطرق الطوال والأبواب الضيقة فكلُّ هذه الخصال التي يحدَّثنا بها بول فاليري عن صديقه، وأثيره ديجاس قد حدثتنا بها القرون والأجيال عن أبي العلاء إلا أنَّ الأوّل كان مصوراً رسّاماً والآخر كان شاعراً حكيماً ".(حسين،٢٠١٢،ص١١).

هذه الإشارة من طه حسين إلى الفرق بين الاثنين ديجاس والمعري حيث الاوّل رسّام والثاني شاعرٌ حكيمٌ يدحضُ ما قاله إبراهيم العريس قبل قليل من أنَّ طه حسين قارن بين متناقضين لانَّ المعري كانَ أعمى وكذلك طه حسين وأنّهما لم يريا الرقص والرسم حيث هذه فنون بصريّة، فطه حسين كان يوظف حياة ديجاس الرؤيوية وسلوكه الفكري المتمثّل بالصرامة على النفس وهذا ما كان بينه وبين المعري من علاقة جعلها طه حسين مرآة يرى من خلالها المعري.

مرآة الذات (The mirror of the self).

من المرايا التي وظفها طه حسين في كتابته سيرة المعري وشخصيّته في كتاب "مع أبي العلاء في سجنه" "مرآة الذات" mirror of the self وأعني بها ذات الكاتب "طه حسين"، حيث في هذه المرآة نجد طه حسين يسقط ما في نفسه من مشاعر وأحاسيس على المعري، وسبب ذلك العلاقة بين الاثنين كما بينت الدراسة، هذه العلاقة التي تشكّلت عبر آفة العمى ، والمشترك الانساني الذي يمكن أنْ يتشكّل بين أيّ طرفين يعيشان الآفةَ نفسَها سواءٌ العمي أو غيرها. ومن هنا فإنَّ مرآة الذات بسطت وجودها على تقييم طه حسين حياة المعري في سجنه كما أسماها.

لقد كان طه حسين من خلال مرآة الذات كما "صوت الضمير المكبوت، والذات الناقمة على قدرها ونصيبها، وآفة العمى التي حاصرتها طيلة حياتها، فهي تتكلم من خلالها دون تزيد، وتستنطقها من دون تكلف، فالتقارب في السمات الشخصية والمزاجية والتجارب الحياتية للشخصيتين، كانتا كفيلتن بأنْ يجعلا من أبى العلاء صوتاً لطه حسين المكبوت والمقيد بالرضا". https://aswatonline.com/2019/11/14/.

ومن هنا فقد تمظهرت مرآة الذات في كتابة سيرة المعري في كتاب "مع أبي العلاء في سجنه" في مظاهر متعددة منها :الحوار الذي اختلقه طه حسين مع المعري، فكان هذا الحوار طرفه الأوّل طه حسين، وطرفه الثاني طه حسين ،الذي يتحدّث بروح المعري ،ويتقمّص رؤية المعري في الحياة معتمداً العلاقة التي يقيمها طه حسين مع شخصيّة المعري عبر المشترك بينهما من آفة العمى التي توحدهما في البعد الجسدي ودورها في البعد

الفكري، على الرغم ما بين الاثنين من جدليّة مبنيّة على الحوار والحجة لكل منهما ومحاولة طه حسين عرض حياة المعري وتسجيلها من خلال هذا الحوار يقول:

": ... وبينما كانت زوجتي وابناي وصاحبي ينظرون إلى البحر والسماء، وإلى الجزر والربى، وإلى هذه المناظر الكثيرة المختلفة التي كانت تُحدِث لهم متعة(...) كنت أنا أدير في نفسي حواراً بيني وبين أبى العلاء، موضوعه الرضا عن الحياة، والسخط عليها، والابتسام لها، والضيق بها، وكنت أحدِّث أبا العلاء بأنَّ تشاؤمه لا مصدر له في حقيقته إلا العجز عن ذوق الحياة، والقصور عن الشعور بما يمكن أنْ يكون فيها من جمال وبهجة، ومن نعيم ولذة، وكان أبو العلاء يقول لي: فإنك ترضى عما لا تعرف، وتعجب بما لا ترى. وكنتُ أقول له: إنْ لم أعرفْ كلَّ شيء فقد عرفت بعض الأشياء، وإنْ لم أر الطبيعة فقد أحسستها، وكان أبو العلاء يقول لى: تبيَّن إنْ استطعت حقيقة ما تعرف، فسترى معرفتك مشوهة، ولائم – إنْ استطعت – بين ما تحسُّ من الطبيعة، وما يرى الناس منها، فلن تجد إلى هذه الملائمة سبيلا.. "(حسين،١٢،٢٠١٢-١٣٤).

وعبر استمرار الحوار يعرض طه حسين لنا تشاؤم المعري من الحياة ،فهذه الظاهرة كانت تجسّد حياة المعري ،ويأتي هنا طه حسين ليقدمها جزءاً من سيرة المعري في أسلوب ماتع يثري روح هذه الظاهرة أمام المتلقي ؛حيث تُستدعى شخصيّة المعري لتخاطبنا من خلال حوارها مع طه حسين، ويعرض لنا في الوقت نفسه عدم اتفاقه مع المعري في هذا حيث يستمر الحوار في الطريقة نفسها لنخلص من الحوار ونحن موقنون بجانب من جوانب سيرة المعري وهو التشاؤم ،فبدلاً من أنْ يذكر طه حسين في كتابته سيرة المعري أنّه كان متشائماً، فإن فنيّة المبدع وكتابة السيرة الروائيّة التي كان يقصدها طه حسين يوظف الحوار ليقدم هذه الميزة في حياة المعري، ويخلص إلى القول عبر مرآة الذات :

" ويشتدُّ عليَّ هذا الحوار بيني وبين أبي العلاء حتى أَبْرَمَ به وأفرَّ منه، وأَطْلب إلى مَنْ حولي أن يدْعوني إليهم، وأن يستنقذوني من هذه الحياة التي كنت أحياها في القرن الرابع للهجرة أو العاشر للمسيح!"(حسين،٢٠١٢، ص١٤).

إنّ مرآة الذات عند طه حسين تندغم مع ذات المعري وتلقي بظلالها عليها حتى يجد طه حسين نفسه يعيش الزمن الذي عاشه المعري. وتتجلى مرآة الذات في اسقاطاتها على المعري من خلال مقارنة المعري مع الفيلسوف الألماني أندرية جيد لما بين الاثنين من وجهة نظر مرآة الذات (طه حسين) من مفارقة في رؤية الحياة وأنَّ الذات منقسمة بين الاثنين ولا يخلُّصها من هذا الانقسام الا الخروجُ من التفكير فيهما بسبب عارض، يقول:

.... "فإذا أنا بين رَجُلَيْن يدْعوني أحدهما إلى زهد شاحب مظلم؛ لأني أشهد لذَّات الحياة، ولا أكاد أُحصِّلها، ويدْعوني أحدهما الآخر إلى حياة كلِّها حِسٌّ ومتعة؛ لأن جمالَ

الطبيعة ينفذُ إلى نفسي من كل وجه. فأما الأول فهو أبو العلاء، وأما الثاني فهو أندريه جيد". (حسين،٢٠١٢،ص١٤).

إن المقارنة التي يقيمها طه حسين بين جانب من حياة المعري والفيلسوف الفرنسي أندرية جيد(https://ar.wikipedia.org/wiki/ André Gide). تؤكّد أنَّ مرآة الذات كانت تسجّل حياة المعري في إطار ثقافتها ومعرفتها بحياة الآخرين من المشهورين، وتقييمها لحيوات هؤلاء وإسقاطها على جوانب حياة المعري ولعل هذا يؤكّد أيضاً أنَّ طه حسين كان يترجم حياة المعري الفكريّة والرؤيويّة عبر التحليل المرتبط بظواهر حياة المعري وظواهر حياة هؤلاء الذين وجد طه حسين بينهم وبين المعري قاسماً مشتركاً أو اختلافاً وتناقضاً كما هو بين المعري وأندرية جيد. وهذا بكل تأكيد ما يقوله طه حسين نفسه في حديثه عن دور تقنة الحوار Dialogue technique وانعكاسها على رأي طه حسين بالمعري أو غيره من المقارَنين، يقول:

"وإذا الحوار يتصل بيني وبين هذا الرجل أو ذاك، أخلو مرة إلى ذاك فتضيق نفسي بكل شيء، وأخلو مرة أخرى إلى هذا فتتسع نفسي لكل شيء، وينقذني من الرجلين جميعًا بين حين وحين حديث زوجي، أو حديث ابني، أو حديث بعض الأصدقاء".(حسين،٢٠١٢،ص١٣-١٥) لعل تسجيلَ حياةِ المعري كما يقدمها طه حسين في كتابه" مع أبي العلاء في سجنه" جعلته يوظف التحليل المبني على توظيف تاريخ الشخصيّة في الوصول إلى حياة المعري والإحساس بها في جزئيّاتها الصغيرة عبر مرآة الذات التي جعلته يصل بسبب هذا إلى القول:

"أنا شديد الإشفاق على أبي العلاء من نفسه قبل كلِّ شيء وقبل كلِّ إنسان. فلم يظلمه أحدٌ قطُّ كما ظلم نفسه، ولم يكلّفه أحدٌ قطُّ من الجهد والعناء ومن المشقة والمكروه مثلَ ما كلَّف نفسه نحو خمسين عاماً. ". (حسين،٢٠١٢،ص٢٣)؛ فطه حسين في معايشته المعري عبر المرايا التي وظفّها حيث جعلته (معريّاً) في الحكم على المعري بأنه ظلم نفسه، وهذا كما يُلحظُ حكمُ مرآة الذات عند طه حسين على المعري، والاحساس العاطفي تجاه المسرود عنه أو المترجم له ،ولعل مرآة الذات هنا تستعير لسان المسرود عنه لتبوح ما كانت تعيشه هذه الشخصيّة من ظلم النفس كما هو عند المعري ،بل ويصل الأمر في مرآة الذات عند طه حسين إلى الاعتراف بأنَّها ترى اعتراف المعري بسجونه هو تفنّن بظلم النفس فهو ليس له إلا سجنٌ واحدٌ(العمى) ،ولكنه صنع لنفسه سجنين آخرين . يقول:

"...فأنت ترى أنَّ أبا العلاء لم يكتفِ بالسجن الذي فرضته الطبيعة عليه فرضاً حين أفقدته ناظره، وإنّما فرض على نفسه سجنين آخرين. أحدُهما ظاهر مُحسٌّ يراه الناس جميعاً ويشهدون ما يمكن أنْ يلقى سجينه من الحزن اللاذع والألم الممض، وهو هذا البيت الذي

أقام فيه أبو العلاء لا يريمه... والآخر سجنٌ فلسفيّ تخيّله كما يتخيّل الشعراء، واشتقّه من حقائق الأشياء كما يفعل الفلاسفة. "(حسين،٢٠١٢، ص٢٣)

بعد هذا يعود السرد السيري –عبر مرآة الذات– إلى الحديث عن حياة المعري في توظيف الجانب التاريخي الذي يوّثق حياة المعري في مصادرها، ولكن من خلال إضفاء الأسلوب (الطهوي)؛ ذلك الأسلوب السهل الممتنع الذي يفكك الفكرة ويعيد تقديمها:

"أقام أبو العلاء في سجنه الفلسفيّ هذا نحو خمسين عاماً، أو استكشف ذات يوم أثناء إقامته ببغداد أو أثناء عودته منها أو بعد أنْ استقرّ في المعرّة أنَّه مقيم في هذا السجن منذ رَشَدَ وبَلا لذات التفكير وآلامه. "(حسين،٢٠١٢، ص٢٦). وتحضر مرآة الذات جليّة في الحديث عن حياة المعري من خلال السرد السيري والإحساس الطهوي المتسق بين الطرفين، يقول:

..."فقدْ فقدَ أبو العلاء بصره صبيًّا، واستقبل الحياة غير مستمتع بهذه المَلَكَة التي تَرْسُم في نفس الأحياء من الحياة صورًا لا عهد له بها. ومع ذلك فقد جاوز الصِّبى، وتقدمت به السنُّ إلى الشباب، وتقدم به الشباب إلى الكهولة دون أن يُنْكِر من أمر الوجود شيئًا ذا خطر أو من دون أن يشتد إنكاره لأمر من الأمور. (حسين،٢٠١٢، ص٣٧)"

وتصبح مرآة الذات أكثراً عمقاً وتجلياً عند طه حسين، اذ يتذكر كلُّ من قرأ " الأيام " دون مواربة أنَّ ما يكتبه طه حسين في ترجمة سيرة المعري في هذا الكتاب هو ذاته ما كتبه عن نفسه في الأيام فالنرَ ما يقول:

"وما من شك في أنه قد أحسَّ منذ أول عهده بهذه المحنة الطبيعية فرقًا عظيمًا بينه وبين أترابه. وما من شكٍّ في أنَّ إحساسه هذا الفرق قد آلمه وآذاه، وأسبغ على نفسه شيئًا من الكآبة المتصلة القاتمة، واضطره إلى كثير من التحرج والتحفظ والاحتياط في سيرته العملية، ولكن ما من شكٍّ في أنه قد قهر هذا كله، وظهر عليه وقتًا طويلًا من حياته"(حسين،٢٠١٢، ص٣٧)

وتستمر مرآة الذات في السرد السيري لحياة المعري:

"وقد فقد أباه في الرابعةَ عشرةَ من عمره، فحزن لِفَقْده حزنًا شديدًا من غير شك، ولكن هذه الفاجعة لم تُفِتَّ في عضده، ولم تُفِلَّ من حدِّه، ولم تقعد به عن الرحلة، ولم تصرفه عن الأسفار، ولَمَّا ألمَّ من دور العلم في الشام بما كان يستطيع أن يُلِمَّ به، وأخذ منها ما كان يستطيع أن يأخذه، عاد إلى المعرة فاستقرَّ فيها وادعًا مطمئنًّا. " (حسين،٢٠١٢، ص٣٨)

وعلى الرغم من اعتراف طه حسين في جهله تفصيل حياة المعري كغيره من الشعراء؛ فإنَّ طه حسين من خلال "مرآة الذات" يحاول أنْ يدخل هذه التفاصيل كما دخلها سابقاً عبر المرايا التي ذكرتها الدراسة وستذكرها، فيقول:

"ومع أننا نجهل تفصيل حياته في المعرة، كما نجهل تفصيل حياة أمثاله من الشعراء والفلاسفة القدماء، فليس من شك في أن حياته مرَّت هادئة وادعة لا عنف فيها ولا اضطراب. ثم نيَّف على الثلاثين، فهمَّ برحلة طويلة شاقة إلى بغداد، وأشفقت عليه أمُّه من هذه الرحلة، فحاولت صَرْفَه عنها، ولكنها لم تُفْلِح، ومضى أبو العلاء في إتمام ما عزم عليه، فانتهى إلى بغداد بعد خطوبٍ امْتَحَنَ فيها صبره وجَلَده، واحتماله، وذكاءه أيضًا. وأقام في بغداد عامًا ونصف عام؛ فعرف مِنْ أمرها ما كان يحب أن يعرف، وبلا من أهلها ما كان يحب أن يبلو، وحَصَّلَ مِنْ عِلْمِها ما كان يريد أن يُحَصِّلَ، وظفر فيها من الشهرة وبُعد الصيت بما كان يحب أنْ يظفر به"(حسين،٢٠١٢،ص٣٩)

بهذه المرآة " مرآة الذات" يقدم طه حسين جانباً من سيرة المعري ولعل ما قدمته الدراسة من نماذج لم تكن يتيمةً، بل إنّك واجدٌ هذه المرآة في أماكن كثيرة في الكتاب لا يسمح حجم البحث بإيرادها كلّها.

مرآة بشار بن برد والمتنبي –The mirror of Bashar bin Burd and Al-Mutanabbi:

من "مرايا السيرة" التي وظفها طه حسين في قراءة حياة المعري وسيرته مرآة الشاعرين بشار بن برد والمتنبي؛ حيث يرى طه حسين أنَّ المقارنة أو الموازنة بين نماذج تقاطعت أو اختلفت مع المعري قد تضيء حياة هذا الشاعر الذي لم يألُ كاتب سيرتِه جهداً أو باباً لم يبذله أو يدخله من أجل الوصول إلى تقديم هذه الشخصيّة التي اختارها وتشبّث بها لتكون موضعه في كتابة السيرة وفي هذا يقول طه حسين:

"هنا تستطيع أنْ تُوَازِنَ بين أبي العلاء وبين شاعرين نابهين حكيمين من شعراء المسلمين، كلاهما شاركه في التفوق والنبوغ والامتياز، وأحدهما شاركه في هذه الآفة الطارئة التي نغَّصت عليه الحياة: وهما: بشار، والمتنبي. "(حسين،٢٠١٢، ص٤٢).

فأما أولهما: فقد كان كأبي العلاءِ، ذكيَّ القلب إلى أبعد حدود الذكاء، دقيق الحس إلى أقصى غايات الدقة، قوي الشعور إلى أرقى مراتب القوة، غزير العلم واسع المعرفة، فصيح اللسان بارعًا في الشعر، قادرًا على التصرُّف فيه إلى حيث لم يسبقه شاعر عربي. " (حسين،٢٠١٢، ص٤٢)

هذه مرآة بشار كما يراها طه حسين الذي يشترك مع أبي العلاء في أنّه كان" ضريرًا مكفوفًا، فيلسوفًا عميق الفلسفة، مفكرًا دقيق التفكير، متشائمًا مُسْرفًا في التشاؤم، سيئ الظن بالناس، سيئ الظن بالطبيعة، سيئ الظن بكل شيء. ولكنه مع ذلك قد سار في حياته الطويلة سيرةً أقلُّ ما توصف به أنها مناقضة كل المناقضة لسيرة أبي العلاء. ". (حسين،٢٠١٢، ص٤٢)

فبمَ كان هذه التناقض لدى طه حسين، وما وجهه؟ يجيب طه حسين على ذلك من خلال توظيف ما يراه هو عن حياة المعري عندما يضعها أمام مرآة بشار، يقول:

" إذا كانت سيرة أبي العلاء طهارةً ونقاءً، وبراءة من الإثم والعاب؛ فسيرة بشار هي العهارة والدنس، والتهالك على الإثم، والإغراق في العاب، وإذا كانت سيرة أبي العلاء تواضعًا، بل إسرافًا في التواضع؛ فسيرة بشار هي الكبرياء، بل تجاوز الكبرياء إلى ما هو شر منها إلى التيه والغُرور، وإذا كانت سيرة أبي العلاء زهدًا في الدنيا، بل إعراضًا عنها، بل بغضًا لها؛ فسيرة بشار رغبة في الدنيا، بل تَهَالُكٌ عليها، بل فناء فيها، وإذا كانت سيرة أبي العلاء تعذيبًا لنفسه وجسمه، (...)؛ فسيرة بشار تنعيم لنفسه وجسمه، وإرسال لشهواتهما على سجيتها.... " (حسين،٢٠١٢، ص٤٢)

وعلى الرغم من هذا الاختلاف فهناك تقاطعٌ بينهما كما يرى طه حسين وهذا التقاطع هو "الجبريّة "، وعيش الواقع بأبعاده عند كلٍّ منهما، يقول:

"...ومع ذلك فقد كان كلٌّ من الشاعرين مجبرًا في أكثر أحيانِه وأغلبِ أمره. وكان كل من الشاعرين ينكر التكليف أو يكاد ينكره. وكان كل من الشاعرين يجهر بأنه ليس مسؤولًا عما يأتي في حياته من خير وشر؟ ". (حسين،٢٠١٢،ص ٤٢-٤٣).

ومن تناقضات المرايا بين بشارٍ وأبي العلاء – كما يرى طه حسين– في توثيقة حياة المعري من خلال هذا التناقض في الغريزة بين الاثنين ، اذ يقدم لنا بشاراً ماجناً فاسقاً إباحيًّا لم يتورّع في شيء بينما يقدم المعري زاهداً طاهراً خَجِلاً يثنيه عقله عن كلِّ شيء بيمنا عاطفة بشارٍ تدعوه إلى كلِّ شيء فتصبح حياة المعري إلى جانب حياة بشار عبر ما أسمته الدراسة مرايا السيرة أنهما مختلفان في "الغريزة" متفقان في الأنسيّة، حيث يسهب طه حسين في سرد ذلك الاختلاف، يقول: (حسين،٢٠١٢، ص٤٣).

"...وشيء آخر يظهر أنَّه أساسيٌ، وهو أنَّ بشارًا كان إنسيَّ الولادة والغريزة؛ وأن أبا العلاء كان إنسي الولادة وحشيَّ الغريزة؟ فنشأ أولهما، ولا حظَّ له من حياء؛ ونشأ ثانيهما والحياء أظهر صفاته، وأعظم خصاله سلطانًا عليه... " (حسين،٢٠١٢، ص٤٣-٤٤). وفي توظيفه مرآة المتنبي يبدأ طه حسين في الحديث عن قرب عصر المتنبي من عصر أبي العلاء المعري والصفات المشتركة بين الشاعرين ومنها ذكاء القلب ونفاذ البصيرة والتفوق والنبوغ غيرها، يقول:

"وأما أبو الطيب: فقد نشأ وعاش في عصرٍ قريبٍ من عصر أبي العلاء، وقد شارك أبا العلاء في ذكاء القلب، ونفاذ البصيرة، وفي التفوق والنبوغ، وشاركه في الشعور بفساد الحياة العامة للمسلمين من جميع أنحائها، وشاركه في الشعور بتفوقه وامتيازه، وفي اعتداده بنفسه" (حسين،٢٠١٢، ص٤٤).

هذا التشابه الذي يراه طه حسين بين المعري والمتنبي لم يقتصر على هذا ،بل وَجَد فيهما أيضاً الالتقاء في الأصول الفلسفيّة، فهو يرى أنَّ أصول الفلسفة العلائية وجدت في شعر المتنبي، غير أنَّ الاختلاف بينهما آفة العمى، وليس هذا فقط بل إنَّ أصول الفنّ العلائي كما يسميها طه حسين موجودة في شعر المتنبي، ويرى طه حسين أنَّ أبا العلاء المعري كان تلميذاً من تلاميذ المتنبي، ولعله يلاحظ أنَّ قراءة حياة أبي العلاء المعري عند طه حسين من خلال مرآة المتني ،جعلت طه حسين يقدم لنا المعري متوافقاً مع المتنبي أكثر مما كان في ذلك بشّار بن برد على الرغم من اشتراك الاثنين في العمى وافتراق ذلك عند المتنبي (حسين،٢٠١٢،ص٤٥). ولكن هذا لا يعني أنَّ الاختلاف بينهما اقتصر على آفة العمى ، بل إنَّ الاختلاف تجسّد في صورة التناقص في الشهوات كما سمّاها طه حسين، فالمعري عرفناه زاهداً متشائماً، قد ذلَّل شهواته وقتّنها ، بينما المتنبي كان نهماً في شهواته ،وهذه الشهوات هي شهوات الثروة ،والغنى والاستعلاء حيث أنفق حياته في البحث عنها ، ولعل مرآة المتنبي في هذا تذكرنا بمرآة بشار أيضاً في هذا النّهم كما قدمها طه حسين مع فارق نوع الشهوة بين الاثنين، وثبات المعري على طريقته في الحياة ، وإذا ما جمعنا المرآتين وجدنا المعري قد عاش جوانب بعض مع عند بشار وجلّ ما عند المتني،(حسين،٢٠١٢، ص٤٥ وما بعدها) وفي هذا يقول طه حسين: "أرأيت إلى الموازنة بين أبي العلاء وصاحبَيْه هذين إلامَ تنتهي؟ وماذا تُعَقِّب في النفس من إعجاب مُرٍّ بهذا الرجل الضئيل النحيل، الذي شارك صاحبَيْه في كثير من أشياء كانت تقتضي أن تتشابه حياتهم، ولكنه مع ذلك امتاز منهما أشدَّ الامتياز وأعظمه؟". (حسين، ٢٠١٢،ص٤٦).

لعله يتضح من هذا أنَّ طه حسين في توظيفه هاتين المرآتين؛ مرآة بشار والمتنبي، يؤكد طريقته في تسجيل السيرة الذاتيّة للمعري عبر سبر حياة هذا الفيلسوف وتميزها الذي يؤمن به طه حسين وسار في الوصل إليها عندما اختار أنْ يتخيّل عيشه معه في سجنه لكي يراه عن قرب ،وقد حقق ذلك في مرايا السيرة التي اختارها من أجل الوصل إلى حياة هذا الرجل.

مرآة النّص العلائيّ The mirror of Abi Al-Ala's text:

وظّف طه حسين (مرآة النّص العلائي) في شقيه الشعر والنثر في تقديم سيرة المعري في جانبيها المادي والمعنوي أو الفكري، فقد جعل طه حسين هذه النصوص مرآةً عكس خلالها سيرة المعري في إطار الوعي الذي عاشه طه حسين مع هذه النصوص، فالمعري كما هو معروفٌ عنه تشاؤمه، وايمانه بالعقل وما يؤدي إليه العقل من علاقة مع الدين والحياة، فطه حسين يقدم موقف المعري من قضايا الحياة تجليّاً لسيرة المعري الفكريّة عبر مرآة النّص العلائي ،ومن هذه المرايا النّصية قصيدةٌ مطلعها:

لَأَمْواهُ الشبيبةِ كيفَ غِضْنَهْ وَروَضَاتُ الصبا كاليَبْس إِضنَهْ.

وبعد أنْ يقدم طه حسين ما في هذه القصيدة من انعكاس اعتقاد المعري ورؤيته الحياة والدين وفلسفته المظلمة كما يسميها طه حسين يصل إلى القول:

"أرأيت إلى هذه القصيدة التي لم تُسْرِف في الطول، ولم تُسْرِف في شيء من الأشياء كيف ألمَّت بألوان مختلفة من هذه الفلسفة المظلمة التي أنفق فيها الشيخ حياته؟ بدأت بالأسف والحزن، وانتهت باليأس والقنوط، وافتنَّ الشيخ بين ذلك في ألوان من التفكير، منها: ما يصوِّر الحذر والاحتياط، ويحاول تطهير النفس مما يراه العقل والدين إثمًا، ومنها: ما يصوِّر التواضع والاعتراف بالقصور، ومنها: ما يصوِّر الثورة على الناس لا على الله وهي على كل حال وفي كل فنٍّ من الفنون التي ألمَّت بها لا تخلو من هذه الشخصية القوية الضعيفة، الثائرة الهادئة، المتكبرة المتواضعة، شخصية أبي العلاء (حسين،٢٠١٢، ص٩٧). هذه الصفات التي قدمها طه حسين يصف فيها شخصيّة المعري كما عرفها طه حسين وخبرها صديق عن صديق ولعل مرآة السيرة العلائيّة واضحةٌ كلَّ الوضوح فيما يكتبه طه حسين ويقصد من ورائه تسجيل مظاهر حياة صديقه الذي عاش معه في سجنه مدة شهر كما يذكر طه حسين.

وفي مرآة (قصيدة) أخرى يرى طه حسين أنَّ المعري هو فيلسوفٌ يلتقي في فلسفته مع الفلسفة الأبيقورية (حسين،٢٠١٢، ص١١٧-١٣٦)، من دون أنْ يتأثرها يقول:

"إنَّ هذه الفكرة التي يصورها الشيخ في البيت الأول، ويقيم الدليل عليها في البيت الثاني مشترِكة بينه وبين أصحاب أبيقور لا في جوهرها فحسب، بل في طريقة عَرْضها أيضًا. فأيُّ الناس قرأ ديوان الشاعر اللاتيني لوكريس الذي يُعَرِّف بطبيعة الأشياء يَعْلَم أن هذه الفكرة شائعة في هذا الديوان كلِّه، وأنَّ الشاعر اللاتيني يَعْرِضها غير مرة على نفْس النحو الذي يَعْرِضها عليه أبو العلاء. " (حسين،٢٠١٢، ص١٠٧)

وفي إطار كتابة سيرة المعري الفكريّة عند طه حسين في كتابه" مع أبي العلاء في سجنه" فإن طه حسين يقدم " اشتراكيّة" المعري وثورته على الظلم والقهر من خلال مرآة النّص العلائي، ففي قراءته بيت المعري:

"غِنى زيْدٍ يكونُ لفقرِ عَمْرٍو وأَحكامُ الحوادثِ لا يُقَسْنَهْ.

يرى طه حسين أنّ المعري كان اشتراكيا، ولكنَّ اشتراكيته ليس كاشتراكية ماركس، فيقول: "سبيل ذلك تحقيق المساواة من غير شك، سبيل ذلك أنْ يُؤْخذ من الغني، وأن يُرَدَّ على الفقير، حتى لا تكونَ بينهما هذه الفروق التي تُبِيحُ لأحدهما أنْ يَظْلِم الآخر، ويستعلي عليه هو اشتراكي لولا أنَّه صاحب قناعة وزهد واعتزال للناس، وإعراض عن الحياة العاملة، وما يكون فيها من جهاد. هو اشتراكي الرأي، فلسفي السيرة، ولنَقْتَصِد مع ذلك في اللفظ وفي

الحُكْم أيضًا، فلا ينبغي أن يُفْهَم من اشتراكية أبي العلاء ما يُفْهَم من اشتراكية كارل ماركس، وإنما ينبغي أن يُفْهَم من اشتراكية أبي العلاء ما يُفْهَم من اشتراكية العصور القديمة، ومن اشتراكية الثائرين والساخطين، في القرن الثالث والرابع للهجرة بنوع خاص. " (حسين،٢٠١٢، ص١٠٩ وما بعدها)

ويسجّل طه حسين أنَّ ما في سيرة المعري من مظاهر "اشتراكية " رَفْضَه لما كان يدعو إليه الزنوج والقرامطة والشيعة من العدل الذي كانوا يدَّعونه والإمامة، وكان يرى أنْ الجور لا بدّ واقعٌ وانَّ إمام النّاس هو العقل فقط، يقول طه حسين:

" وتستطيعُ تَنْظُر إلى هذه الأبيات التي رَدَّ فيها أبو العلاء على الشيعة، وعلى صاحب الزنج، وعلى القرامطة، فسترى أنه أَنْكَر عليهم جميعًا ما كانوا يطلبون أو يحاوِلون، أو ينتظرون من تحقيق العدل في الأرض. أَنْكَر عليهم الإمام الذي كانوا ينتظرونه، ولكنَّه اعْتَرَفَ بأن الجور شيء واقع، ولا سبيل إلى الإفلات منه"(حسين،٢٠١٢، ص١٠٩)

وفي سياق مرآة النّص العلائي فإن طه حسين يوظف مرآة نص "اللزوميّات" الذي يقدمه كنموذجٍ من سيرة المعري المتمثّلة في صورة الفراغ الذي كان يعيشه المعري، متوقّعاً أنْ يرفض القارئ أنْ يكون ديوان اللزوميّات يمثل حياة الفراغ عند المعري، فيقول:

"وأول ما أواجهك به من ذلك وأنا أُقَدِّر أنك ستلقاه منكرًا له ثائرًا عليه، هو أنَّ اللزوميَّات ليست نتيجة العمل، وإنما هي نتيجة الفراغ، وليست نتيجة الجدِّ والكدِّ، وإنما هي نتيجة العبث واللعب، وإنْ شئتَ فقُل إنها نتيجةُ عملٍ دعا إليه الفراغ، ونتيجة جدٍّ جرَّ إليه اللعب. ولأوضِّح ذلك بعض التوضيح فقد أهدِّئ من ثورتك، وأُحَوِّل إنكارك إلى إقرار واعتراف. " (حسين،٢٠١٢، ص٦٥- وما بعدها).

يقدم طه حسين حياة المعري والتزامه بيته مدة خمسين عاماً كحالة وضعت المعري في حياة الفراغ واليأس مما دفعه ذلك إلى الترويح عن نفسه وإشغالها في الكتابة والتأليف من أجل أنْ يواجه هذه الحياة وكان نتيجة ذلك تأليف ما ألّف ولا سيما ديوان" اللزوميّات" الذي خصّه طه حسين وربطه بحياة الفراغ التي عاشها المعري كما يرى طه حسين،يقول في هذا :

فقد لزم أبو العلاء داره لا يبرحها نصف قرن، فقدِّرْ أنت نصف القرن هذا كم يكُون من سنة، ومن شهر، ومن أسبوع، ومن يوم، ومن ساعة... فماذا كان أبو العلاء يصنع أثناء ساعات الفراغ تلك التي كانت تُفْرَض عليه في كل نهار، وفي كل ليل، وفي كل أسبوع، وفي كل شهر، وفي كل عام أثناء نصف قرن؟ كان يفكر، ولكن يفكر في ماذا؟ يفكر فيما كان قد حصَّل من علمٍ وأدبٍ وفلسفةٍ، وفيما كان يُقْرَأ عليه من ذلك، وفيما كان يَتَهَيَّأ لإملائه منه على الطلاب والتلاميذ..."لَمْ أكنْ إذَنْ مسرفًا ولا غاليًا حين قلْتُ: إن اللزوميَّات نتيجة الفراغ واللعب، أو نتيجة العمل الذي دعا إليه الفراغ".(حسين،٢٠١٢،ص٦٦وما بعدها)

ولعل هذا الفراغ الذي يراه طه حسين قد دفع المعري إلى أنْ يتلهى بما يكتب ويتفنن بما يملك من المعرفه الفلسفيّة واللغويّة ولا سيما ان المعري لم يكن متزوّجاً أو له أولاداً يقضى بعض وقته معهم، ولهذا كانت حياة المعري التي يكتبها المعري تدفعه إلى خصوصيّة الابداع والكتابة التي كان يمليها على تلامذته الذين كان المعري يستطيع بهم كما يقول طه حسين.

وبماذا تريد أن يتسلى ويتلهى في براءة وطهارة ونقاء، وفي خلوٍ إلى النفس وانقطاعٍ عن الناس واستغناءٍ عنهم أيضًا؟ لا بدَّ له من أن يلتمس التسلية والتلهية عِنْد نَفْسه وعِنْد نَفْسه وحْدَها وقد فَعَلَ! فاستجابت له ذاكرة قويَّة، وحافظة نادرة، وعقل ذكي بَعِيدُ آماد التفكير. فأمَّا ذاكِرَته أو حافِظَته فقد وجد فيها ألفاظ اللغة العربية كلها أو أكثرها على أقل تقدير. وجَدَ فيها ما سَمِع من الشيوخ، وما قرأ في الكتب، وما روى من الشعر، وما وعى من الأخبار والآثار. وأما عقْله فقد وَجَدَ فيه ما حصَّل من العلم على اختلاف ألوانه، ووَجَدَ فيه بنوع خاص هذه القدرة على استقصاء الأشياء، والنفوذ إلى أعماقها. "(حسين،٢٠١٢، ص ٧٠)

يؤكّد طه حسين من خلال مرآة النّص العلائي " اللزوميّات" بالإضافة إلى " الفصول والغايات " أنّهما مرآة المشقّة والمتعة في الوقت نفسه في حياة المعري، فهما تعبيرٌ عن المشقّة التي عاشها المعري ولذة القارىء الذي يجد فيهما المتعة، وليس هذا فحسب ،بل أبو العلاء كان يسلِّ عنه نفسه وقت التأليف ويرفّه عليها ويبهر الناس بما لديه من قدرة وتمكّن. (حسين،٢٠١٢، ص ٧٠).

ويجعل طه حسين مرآة اللزوميّات عند المعري انعكاساً لحالة التفكّه والعبث التي وصِف بها المعري ، وقد حدد طه حسين ألواناً ثلاثة من العبث في حياة المعري من خلال مرآة اللزميّات؛ الأوّل :العبث بالنحو أو الصرف ، والثاني: عبثه بالالفاظ اللغويّة: والثالث من هذ الألوان هو ما يسميه طه حسين الجناس الظريف، وليس هذا فقط ،بل إنَّ طه حسين يجعل مرآة اللزوميّات في جانبٍ منها أنّها تعبّر عن خصوصيّة المعري النفسيّة يقول للمتلقي " لم يفكر فيك أبو العلاء إذَنْ، ولم يَحْفِل برضاك حين نَظَمَ اللزوميَّات، وإنما فكَّر في نفسه، وحَفَلَ برضاه هو" (حسين،٢٠١٢، ص ٨٥)، وتصبح مرآة اللزوميّات هي عصارة حياة المعري الفلسفيّة التي عاشها قولاً وفعلاً ، فهي متصلة بفكر المعري وتشاؤمه، يقول:"إنه متصل بتفكير أبي العلاء، وفلسفته كلها. " (حسين،٢٠١٢، ص ٩٠). هكذا قدمت مرآة النصوص العلائيّة حياة المعري عند طه حسين، فهي نابضةٌ بحياته وهي محمّلة بهذه الحياة التي جعلت طه حسين يتمرّأى بها للوصول إلى ترجمة حياة المعري وتسجيلها وتوثيقها.

مرآة التخيُّل (Mirror Imagination):

جاء في موسوعة ستانفورد للفلسفة: التخيُّل هو تمثل الأشياء ، من دون أن تكون ماثلة أمامك كما هي في الواقع."(.https://hekmah.org)

وهذا فقد مثّل التخيُّل بمفهومه السابق مرآةً وظفها طه حسين في تقديم سيرة المعري في كتابه " مع أبي العلاء في سجنه" فمن خلال "التخيُّل" والتصّور لجانب من حياة المعري في مكانه الذي كان يعيش فيه، وكيف كان المعري يتعامل مع تلامذته ويملي عليهم ما يؤلّفه؟ ،اذ استطاع طه حسين أنْ ينقل للمتلقي صورة هذه الحياة وكأنها في واقع الأيام التي عاشها المعري ومعه طه حسين، جاءت هذه المرآة " التخيُّل" في الفصل السادس (حسين،٢٠١٢،ص ٥٩-٦٤) من الكتاب ،إذ يرسم طه حسين من خلال عبقريّة سيريّه أبعادَ هذا المكان الذي سعى إلى الدخول إليه ، وأستطاع ذلك عبر مرآة التخيُّل، وهو يعج بالتلاميذ والمريدين لهذا الرجل، ليسجّل لنا سيرة غيريّة تتجلّى فيها عبقريّة السارد أو الراوي للسيرة وهو هنا طه حسين يقول مصّوراً لنا هذا الحضور والدخول إلى حجرة المعري :

"وأُدخِلْتُ على الشيخ في حجرة واسعة بعيدة الأرجاء، قد جلس هو في صدرها على حصير؛ لعله أنْ يكون أقْربَ إلى البلى منه إلى الجدَّة، وبين يديه نفَر يكتبون، وفي الحجرة قومٌ آخرون كثيرون يسمعون ويَعْجبون، ولكنَّهم لا يقيّدون ما يسمعون، وكان صوت الشيخ شاحبًا حزينًا قد أُلْقِيَت عليه مسحة من كآبة، ولكنه كان في الوقت نفسه ثابتًا ممتلئًا يمازج حُزنَه شيء من الرضا والأمن، وشيء آخر لا يكاد يُحَسُّ كأنه يُمَثِّل غبطة هادئة، وابتهاجًا متواضعًا بما أتيح للشيخ من فوز. وكان يُملي هذه الأبيات(...) وقد أعجبني هذا الصوت الشاحب المُشْرق، والمحزون المبتهج، ووجدْتُ في الاستماع له لذَّةً وأُنسًا لم أجدْهما في الاستماع لصوت قط. ولكني تجاوزت الصوت مسرعًا إلى ما كان يمْلي مِن الشعر، فوقفْتُ منه عند أمرين، أو قُلْ عند أمور ثلاثة مختلفة، ولكن ائتلافها هو قِوام هذه الأبيات."(حسين،٢٠١٢، ص ٥٩وما بعدها).

إنَّ قارئ هذا السردَ السيريّ الذي يقدمه طه حسين من خلال مرآة التخيّل لا يستطيع أنْ يراه متخيّلاً لولا أنّه يعلم زمن الرجلين ؛فأبو العلاء من زمن القرن الرابع والخامس الهجريين ،وطه حسين في الزّمن الحديث، ولعل إنَّ دلَّ ذلك على شيء فإنّما يدل على عبقريّة طه حسين في توظيف التجريب في الكتابة السيريّة للمعري في كتابه هذا ،وأنَّ طه حسين لم يتوقّف عند السرد التقليدي في كتابة سيرة المعري، بل وظّف ما أسمته الدراسة مرايا السيرة ومنها هنا التخيّل بمفهومه الفلسفي الذي يمنح الكتاب اختراق الزمان والمكان وجعل التخيّل وسيلة استحضار للظاهرة وما يرافقها من سياقات متعددة تتوافق معها. وهذا ما فعله طه حسين في تقديمه جزءاً من حياة المعري وهو في سجنه.

ويتابع طه حسين من خلال مرآة التخيُّل بأسلوبه الماتع والجاذب:

"وهذه الأبيات التي سمعْتُ أبا العلاء ينشدها فأعجبَتْني من جميع وجوهها أغْرتني بكثرة الاستماع للشيخ حين كان يملي شعره هذا على كُتَّابه وطُلَّابه، كما أغْرتني بأن ألزم الشيخ في جميع أطوار يقظته العاملة حين كان يخلو إلى نفسه ما أقمْتُ معه في سجنه، فقد كنت حريصًا على أنْ أُحَصِّل لنفسي هذه اللذة الفنية العقلية بالاستماع لإملاء الشيخ، وبالفهم عنه، كما كنت حريصًا على أن أشهد الشيخ وهو يعاني ألوان الجهد الفني والعقلي، ويصطنع ألوان الحيل ليجمع بها بين المعاني الفلسفية التي لم يَأْلَفْها الشعر كثيرًا في لغتنا العربية وبين الألفاظ القريبة والغريبة في هذا النظم العسير، وبهذه القافية الشاقة."(حسين، ٢٠١٢،ص٦٣).

ويسرد لنا طه حسين مما يسرد عبر مرآة التخيُّل ما كان أبو العلاء يفكّه به طلاّبه وقرّاءة، فيقول:

"واللون الثاني من ألوان هذا العبث الذي كان يتفكه به أبو العلاء، ويفكِّه به طُلَّابه وقُرَّاءه هو عبثه بالألفاظ اللغوية: يُورِدها مشتبهةً، ثم يفسرها كما يفسِّر علماء اللغة ما يَعْرِض لهم من الألفاظ المشكلة، وبنفس الأسلوب الذي يفسرون به هذه الألفاظ "(حسين، ٢٠١٢،ص٦٦ وما بعدها). ويستمرّ طه حسين في هذا السرد إلى أنْ يفارق الشيخ كما يسميه متجهاً إلى باريس. (حسين، ٢٠١٢، ص٩١).

الخاتمة:

وبعد هذا التطواف في كتاب طه حسين " مع أبي العلاء في سحنه" بحثاً عن سيرة المعري التي قصد طه حسين تقدمها إلى القارئ من خلال ما أسمته الدراسة " مرايا السيرة " فقد تبيّن ما قصدتْ إليه الدراسة وهو أنَّ هذا الكتاب يمثّل سيرة غيريّة كتبها عمد الأدب العربي طه حسين للمعري، وقد جاءت هذه السيرة مغلّفة بأسلوب طه حسين المبدع في كتابة السيرة حيث تجسّد هذا الابداع في كتب سيرة أخرى كتبها طه حسين وذكرتها الدراسة، حيث كان هذا الكتابُ ثمرةً ماتعة من ثمرات طه حسين، وقد وصلت الدراسة إلى ما يلي:

أولاً : أنَّ العلاقة بين طه حسين والمعري كانت علاقةَ اندماج وتواصلٍ في الجانبين المادي والفكري، متمثلٌ ذلك في آفة العمى ومظاهر حياة الرجلين الفكريّة. وهذا دفع طه حسين إلى تأليف ما ألفه عن المعري تم ذكره في متن الدراسية.

ثانياً :أنّ كتاب " مع أبي العلاء في سجنه " يمثل جدليّة السيرة الذاتيّة والنقد الأدبي لكن ما قاله طه حسين في ذلك، فضلا عن متن الكتاب يؤكّد ميله إلى السيرة ،وهذا ما حاولته الدراسية في موضوعها" مرايا السيرة".

ثالثاً: تؤكّد الدراسة أنَّ المرايا التي وظّفها طه حسين في كتابة سيرة المعري عكست العلاقة القويّة بين عبقريّة طه حسين وبين التجريب السيري .رابعاً : وجدت الدراسة انَّ سيرة طه حسين الذاتيّة" الأيام" قد انعكست في بعض مشاهدها السيريّة في كتاب" مع أبي العلاء في سجنه.

المصادر والمراجع

بريسو، سوزان، معاك .(1979) .ترجمة بدر الدين عرودكي، ط١، دار المعارف، القاهرة.

بلال، مؤمن، (٢٠١٩) بين طه حسين وأبي العلاء. قصة الصوت وصداه . https://aswatonline.com/2019/11/14/%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%B7%D9%87-%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86-%D9%88%D8%A3%D8%A8%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D8%A7%D8%A1-%D9%82%D8%B5%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%88%D8%AA-%D9%88%D8%B5%D8%AF%D8%A7/ .

حسين، طه، تجديد ذكرى أبي العلاء (٢٠١٢) مؤسسة هنداوي، مصر.

حسين، طه، الأيام، في مجلد واحد، (١٩٩٢)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، مصر.

حسين، طه، مع أبي العلاء في سجنه (٢٠١٢) مؤسسة هنداوي، مصر.

حسين، طه، أديب، (٢٠١٤) مؤسسة هنداوي مصر.

حسين، طه، صوت أبي العلاء (د.ت)، سلسلة رقم (٢٣) اقرأ تصدرها دار المعارف، بمصر.

حسين، طه، من تاريخ الأدب العربي (١٩٨٠)، دار العلم للملايين، ج٣. بيروت.

حسين، طه، والأبياري، إبراهيم، "شرح لزوم ما لا يلزم، لأبي العلاء المعري، أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي(١٩٥٩-١٩٦٠)" دار المعارف بمصر.

الدسوقي، محمود، طه حسين والمعري وجها لوجه بعد ١٠٠٠عام.. ماذا فعل عميد الأدب العربي عند قبر .https://gate.ahram.org.eg/News/3589983.aspx رهين المحبسين.(2009)

رحيم، عبد القادر، العنونة. (٢٠١٠)، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، ط١.

الرصافي، معروف، على باب سجن أبي العلاء رداً على كتاب طه حسين مع أبي العلاء في سجنه (١٩٤٦). مطبعة، الرشيد، بغداد

الرصافي، معروف، على باب سجن أبي العلاء رداً على كتاب طه حسين مع أبي العلاء في سجنه، .(2018) تقديم صباح جمال الدين، دار الوراق للنشر.

زكي، أنس. مع أبي العلاء في سجنه. https://www.aljazeera.net/culture/ .(2023)

زيادة، مي ،رسالة إلى طه حسين. https://alantologia.com/blogs/blog/1967/ (1967).

عباس، إحسان، فن السيرة. (١٩٩٦)، دار الشروق، الطبعة الأولى ، عمّان.

العريس، إبراهيم ،بين المعري وديجاس https://www.independentarabia.com .(2016).

العقاد، عباس. (١٩٣٩.(مع أبي العلاء في سجنه، مجلة الرسالة/العدد ٣٣٥.ص١٩

موروا، أندرية، فن التراجم والسير الذاتيّة (١٩٩٩)، ترجمة وتقديم أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة